من قدر الله إلى قدر الله

علي أحمد باكثير

تأليف / علي أحمد باكثير

«مسرحية لم تنشر من قبل»

في سرغ على مقربة من تبوك.

الوقت: أول الليل بعد صلاة العشاء...

(يرى عمر جالساً أمام خبائه وعنده يزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة والعباس بن عبد المطلب وعثمان وطلحة وسعيد بن زيد وعبد الله بن عباس وأبو طلحة الأنصاري).

شرحبيل : أجل يا أمير المؤمنين كنا أهل الشام نرثي لأهل الجزيرة من عام الرمادة فإذا نحن نُنْكَب بطاعون عمواس.

عمر : (يدعو مبتهلاً) اللهم كما رفعت عنا المحل فارفع عنا هذا الداء.
اللهم لا تجعل هلاك أمة محمد على يدي عمر.

أبو طلحة: (يدخل) أبشر يا أمير المؤمنين .. فقد رجع رسولك ومعه أبو عبيدة.

عمر : اللهم لك الحمد .. الآن اطمأن قلبي. (يدخل أبو عبيدة).

أبو عبيدة : السلام عليك يا أمير المؤمنين.

عمر : (يقوم له فيعانقه) وعليك السلام ورحمة الله، بأبي وأنت وأمي، أين أدركك الرسول يا أبا عبيدة؟

أبو عبيدة : على مرحلة بعد تبوك يا أمير المؤمنين؟

عمر : الحمد لله.

أبو عبيدة : ما هذا الذي بلغني يا أمير المؤمنين؟ أحقاً إنك اعتزمت النكوص عن الشام؟

عمر : بل اعتزمت الرجوع بالمسلمين إلى المدينة.

أبو عبيدة : من أجل هذا الداء الذي ظهر بالشام؟

عمر : نعم. لا أريد أن أقدمهم عليه ولي مندوحة عنه.

أبو عبيدة : أفراراً من قدر الله يا عمر؟

عمر : (يبهت قليلاً) ماذا تقول يا أبا عبيدة؟

أبو عبيدة : أقول أفراراً من قدر الله؟

عمر : لو غيرُك قالها يا أبا عبيدة؟ نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله.

أبو عبيدة : لو غيرُك قالها يا ابن الخطاب. إن الله تبارك وتعالى يقول : ﴿**قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا**﴾.

عمر : و إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿**ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة**﴾.

أبو عبيدة : إنك لتعلم يا أمير المؤمنين أن الآية إنما نزلت في ترك الجهاد والإمساك عن النفقة فيه.

عمر : أجل نهانا الله عن ترك الجهاد لأن ذلك يُفضي إلى التهلكة.
فأحرى أن ينهانا عن الإلقاء بأيدينا إلى التهلكة ذاتها.

أبو عبيدة : الشام عندك هلكة؟
عمر : الطاعون بالشام. والطاعون هلكة.
أبو عبيدة : أين إذاً اليقين بالله يا عمر؟
عمر : ويحك يا أبا عبيدة من تمام اليقين بالله أن تعرف سنته في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلاً .. هذا الوباء مثله كمثل النار، ليس لنا أن نضع أصابعنا فيها ونقول: ﴿**قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا**﴾.
أبو عبيدة : كلا يا عمر إن النار تحرق لا محالة فأما الوباء فيصيب بعض الناس دون بعض وإنما مثله كمثل القتال في سبيل الله يتعرض فيه المجاهدون للقتل، فمنهم من يقتل ومنهم من يسلم من القتل.
عمر : كلا يا أبا عبيدة القتال فريضة كتبها الله علينا لننصر الحق على الباطل وننقذ المستضعفين من ظلم ذوي الظلم. ولتكون كلمة الله هي العليا ﴿**فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيما**﴾.
أبو عبيدة : أرأيت يا عمر لو فر رجل من الزحف أليس يفر من قدر الله إلى قدر الله.

ليس الفرار من الوباء كالفرار من الزحف، فالفرار من الزحف إثم عظيم لأنه فرار مما فرضه الله

عمر : بلى.
أبو عبيدة : فهل يحل له ذلك؟
عمر : كلا .
أبو عبيدة : فعلام قلت آنفاً نفر من قدر الله إلى قدر الله؟
عمر : ويحك يا أبا عبيدة ليس الفرار من الوباء كالفرار من الزحف. الفرار من الزحف إثم عظيم، لأنه فرار مما فرضه الله عليك وليس لأنه فرار من قدر الله فإن قدر الله لا مفر منه البتة إلا إلى قدره. أما الفرار من الوباء فمن التقوى التي أمرنا بها الله.
أبو عبيدة : أنّى لك يا أمير المؤمنين أن ذلك من التقوى التي أمرنا بها الله؟ أعندك بها حجة من كتاب أو من سنة؟
عمر : لا يا أبا عبيدة ما عندي بها حجة من كتاب أو من سنة اللهم إلا الفهم ومعرفة الأشباه والأمثال وقياس الأمور.. ولقد ظللت منذ الظهر أسال أصحاب رسول الله من المهاجرين الأولين ثم من الأنصار فلم أجد عندهم شيئاً، واختلفوا في رأيهم أيما اختلاف فرجعت إلى مشيخة قريش من مهاجرة الفتح فوجدتهم على رأي واحد أن ارجعوا إلى المدينة فصدعت به.
أبو عبيدة : لا غرو يا عمر أن يكون هذا رأى مسلمة الفتح من الطلقاء وأبناء الطلقاء الذين لا هم لهم إلا الدنيا فكيف بالله تأخذ به؟
عمر : إن فضل الرأي في الرأي ذاته وليس في قائله أو صاحبه. والحكمة ضالة المؤمن يأخذها أنّى يجدها.
عباس : ما إخال أبا عبيدة الآن إلا اقتنع برأيك يا أمير المؤمنين.
عمر : أحقاً يا أبا عبيدة؟
أبو عبيدة : لا والله يا أمير المؤمنين. هذا الفرار من قدر الله إلى قدر الله ما زال في نفسي شيء منه.
عمر : يا أبا عبيدة كيف بالله أبين ذلك لك؟ دعني أضرب لك مثلاً:
أرأيت لو كان لك إبل فهبطت وادياً له عُدوتان إحداهما خصبة والأخرى جدبة أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟
أبو عبيدة : بلى يا أمير المؤمنين، ولكن شأننا مختلف، إنك قد خرجت بنا إلى العدوة الجدبة ابتغاء مرضاة الله وإرادة ما عنده. فلا ينبغي أن يصدك عنها مشقة تلقاها أو بلاء عرض لك.
عمر : يا أبا عبيدة قد شرح الله صدري لهذا الرأي فلن أعدل عنها أبداً إلا إن جئتنا ببرهان من كتاب أو سنة .
أبو عبيدة : يا عمر أنت أمير المؤمنين فاصدع بما شرح الله له صدرك فإني وإن لم أكن على رأيك لسامع لك مطيع.
عمر : جزاك الله خيراً يا أمين هذه الأمة. يا عبد الله بن عباس.
ابن عباس: لبيك يا أمير المؤمنين.
عمر : اخرج فناد في الناس بأننا مرتحلون غداة غد فليصبحوا جميعاً على ظهر.
ابن عباس: سمعاً يا أمير المؤمنين. (يخرج).
عمر : انصرفوا إلى رحالكم وانتظر انت يا أبا عبيدة. (ينصرف الجميع ما خلا أبا عبيدة).
أبو عبيدة : ائذن لي يا أمير المؤمنين استأنف مسيري الليلة.

عمر : ماذا ترى يا أبا عبيدة لو رجعت معنا إلى المدينة وأرسلنا من يجيء بأهلك وعيالك من حمص؟
أبو عبيدة : وعملي يا أمير المؤمنين بالشام؟
عمر : سأعفيك منه وأوليه لغيرك.
أبو عبيدة : أسخطت مني شيئاً يا أمير المؤمنين؟
عمر : معاذ الله، ولكن عرضت لي حاجة إليك بالمدينة.
أبو عبيدة : هل لك يا أمير المؤمنين أن تذكرها لي؟
عمر : إني قد عزمت أن أزور العراق، وأطوف بمدنه، وأتفقد أحوال الناس هنا، فأريد أن أستخلفك على المدينة.
أبو عبيدة : إنك تستخلف علي بن أبي طالب في كل مرة.
عمر : أريد أن استصحب علياً معي في هذه الرحلة.
أبو عبيدة : يا أمير المؤمنين لا تداورني فإني قد عرفت حاجتك .
عمر : أجبني إذن إليها يا أبا عبيدة جزاك الله صالحة.
أبو عبيدة : إني في جند من المسلمين لا أجد بنفسي رغبة عنهم فلست أريدُ فراقهم.

إن فضل الرأي في الرأي ذاته وليس في قائله أو صاحبه والحكمة ضالة المؤمن

عمر : لكني أنا يا أبا عبيدة لا أريد فراقك.
أبو عبيدة : ويحك يا ابن الخطاب قد علمت أننا لسنا عليها بمخلّدين.
عمر : إني أخشى أن يأتيني قضاء الله وأنت يا أبا عبيدة غير موجود.
أبو عبيدة : وأنا والله يا أمير المؤمنين لا أرغب أن أبقى بعدك. إن البقاء بعدك لمحنة ما لي بها يدان.
عمر : بلى يا أبا عبيدة إنك لجدير بها، فأنت أمين هذه الأمة.
أبو عبيدة : يا أمير المؤمنين أردت آنفاً أن تفر من قضاء الله وتريد الآن أيضاً آن تسبقه.
عمر : أن أسبق قضاء الله يا أبا عبيدة فإلى قضاء الله.
أبو عبيدة : يا أمير المؤمنين نشدتك بالله إلا ما حللتني من عزمتك وتركتني في جندي فلست أرى فراقهم حتى يقضي الله فيَّ وفيهم أمره وقضاءه.
عمر : كما تحب يا أبا عبيدة.
أبو عبيدة : جزاك الله من أخ صالح. لا تنسني من صالح دعائك يا عمر.
عمر : (تدمع عيناه) وأنت يا أخي لا تنسني كذلك عند ربك. (يخرج أبو عبيدة).
عمر : عند ربك! أقلتُ عند ربك؟ اللهم لا تجعل لساني يسبق قضاء. يا ويح أبي عبيدة .. أحقاً إني لن أرى وجهه ولن أسمع صوته إلا يوم يجمعنا الحشر (يدخل ابن عباس).
عمر : ابن عباس ناديت في الناس؟
ابن عباس : كما أمرت أمير المؤمنين.
عمر : فماذا قالوا؟
ابن عباس : رضي الكثير يا أمير المؤمنين وتذمر القليل.
(يدخل) عبد الرحمن بن عوف.
عمر : (فرحاً) ادخل يا أبا محمد.
ابن عوف : (يدخل) السلام عليك يا أمير المؤمنين.
عمر : وعليك السلام ورحمة الله أين كنت يا ابن عوف؟
ابن عوف : تخلفت يا أمير المؤمنين بعض الطريق عرجت على معارف لي من عهد الجاهلية فأخروني عندهم.
عمر : ألم يبلغك ما حدث؟
ابن عوف : بلى يا أمير المؤمنين وعندي من هذا الذي اختلفتم فيه علم.
عمر : عندك منه علم؟ هات.
ابن عوف : سمعت رسول الله ﷺ يقول: إذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا تقدموا عليه و إذا وقع وأنتم به فلا تخرجوا فراراً منه.
عمر : الله أكبر. قد أيدنا الله بالبرهان الواضح. أدركوا أبا عبيدة وأرسلوا وراءه من يعود به.

دراسة تطبيقية

الخصائص الفنية للاتجاه الإسلامي

في ديوان «المرايا وزهرة النار»

بقلم: أحمد محمود مبارك

المتأمل

في شعر الدكتور صابر عبدالدايم من خلال ما أصدره من دواوين(١) تتجلّى أمامه سِمَةٌ بارزة، وهي أن قصائده تنطلق من رؤية إسلامية سامية. رؤية تَتَّسِمُ بالرحابة والشمول -وفي الوقت نفسه بالالتزام بأبعاد وخصائص النظرة الإسلامية للإنسان والحياة والكون، فمن خلال هذه الرؤية ينطلق إنتاجُهُ الشعريُّ ثرياً في عطائه، متنوّعاً في طرق أدائه.. غير أن هذا التنوّع وإن انطوى على استجابة لنداء التجديد وعوامل التطوّر، فإنه يظل بمنأى عن الجنوح للدعاوى الحداثية التي تسعىٰ لتحطيم الضوابط والأسس الفنيّة الأصيلة، التي ميَّزتْ شعرنا العربيَّ على مدىٰ قرون طويلة والتي تَعْمَدُ إلى القطيعة الكلية عن هذه الأسس، والاحتذاء ببعض النظريات التغريبية، إلى الحدِّ الذي يُفْقِدُ الشِّعْرَ العربيَّ هُـوِيَّتَهُ، بل إلى الحد الذي يُحيل الشِّعْرَ إلى مجرّد همهمات وتشكيلاتٍ لفظية جوفاء مبهمة، مُجرّدة من المعنى. فالشاعر الدكتور صابر عبد الدايم في جنوحه للتجديد لم يخرج عن منظور الأدب الإسلامي. ذلك أن الشعر فنٌّ أدبيٌّ تعبيريٌ جميل يلتحم مع قِيَمِ الحقّ والخير وما ينفع الناس في نسيج واحدٍ.

وهذا المفهوم -الالتزامي- للشعر من وجهة النظر الإسلامية. ليس ضيّقاً ولا محصوراً -كما يظنّ البعض- في نطاق شعر الابتهالات الدينية والمناسبات الإسلامية والمواعظ، وإنما هو من الشمول والرحابة، بحيث يشمل كلَّ تعبير شعريٍّ جميل عما يخالج الإنسان من أفكار ومشاعر وانفعالات بما لا يتعارض مع قِيَمِ الإسلام الحنيف ومبادئه وأُسسه.. كما أن هذا المفهوم الإسلاميّ للشعر لا يعني أن الشعر الإسلاميّ ذو شكل ثابتٍ، غير قابل للتجديد والتطوير.

ذلك أن المفهوم الإسلامي للشعر من المرونة والرحابة، بحيث يشمل كل تجديد شكليّ، لا يُطيح بما يجب أن يتوافر في التعبير الشعري من عناصر وخصائص موسيقية ولغوية وتعبيرية، تميّزه عن غيره من صنوف التعبير الأدبي النثرية.

● وإذا ما خلصنا إلى ما سبق. فإن هذه المفاهيم التي تنطوي عليها الرؤية الإسلامية للشعر. تَتَبدَّىٰ بجلاءٍ للدارس لأشعار الدكتور صابر عبد الدايم في جلّ ما أفرزته موهبتُه الشعرية وإذا كنا لا نستطيع أن نستجلي هذه الرؤية في كل ما صدر للشاعر، لأن هذا يحتاج إلى دراسة موسعة فإنه يكفي أن نتوقف عند ديوانه الرابع «المرايا وزهرة النار»، ففي الديوان تُطالعنا أكثرُ من قصيدة، يُحدِّدُ فيها الشاعرُ منهجَهُ الشعريَّ. بحيث يمكننا أن نتلمس فيها ملامحَ «التنظير» مضفورةً في النسيج الفنيّ التصويري الإيحائي للتجربة الشعرية. كما هو الشأن في قصيدة «قافلة الغرباء»(٢). حينما يتحدّد المفهوم الذي اختاره الشاعر للشعر والشعراء- وهو مفهومٌ إسلاميٌّ خالص- بقوله:

والشاعرُ عندكَ يا مَنْ جئتَ بِمِلَّتِكَ البيضاءْ
حطّابٌ يحمل فأساً في الصحراءْ
يُجْرِي فيها الأنهارَ
وينسجُ للعريان كساءْ
والشاعرُ سلطانٌ،
يحملُ فوق الظهر إلى الأطفالِ غداءْ
سيف مسلولٌ في وجْهِ الأقذاءْ
قلبٌ بأذانِ الحقّ خفوقٌ يورق بالأمل الوضّاءْ
والشاعرُ صدّيقٌ
ينزعُ سيفَ الردّةِ من ظلِّ الأعداءْ
ويُطاردُ جيشَ مسيلمةَ الكذّابِ بكل الأجواءْ
يصرعُ جَبَلَ الباطلِ
يجعلهُ سفْحاً من أشلاءْ..

... وإضافة إلى هذا المضمون المضيء لهذه القصيدة - التي قلنا إننا نتلمسُ فيها ملامح التنظير للشعر الإسلامي- فإنه حريٌّ بنا أن نتأمل عناصرَ التشكيل الأدائي اللغوي والتصويري والدلالي. لندرك المعين الثرَّ الذي يستقي منه الشاعرُ العناصر الفنية للقصيدة، فالإحالات التصويرية والرمزية التي زخرت بها القصيدة مستقاةٌ من التاريخ الإسلامي في صفحاته المضيئة، والدلالات الإيحائية المنبثقة من تلك الإحالات شديدة الارتباط بوجدان المتلقي وفكره، كما أنها شديدة الارتباط بمضمون القصيدة وأفكارها الرئيسية بغير افتعالٍ أو انشقاق.

وثمة ظاهرة جديرة بالنظر لدى الشعراء الإسلاميين.. فالقرآن الكريم الذي يضيء به المولى عزّ وجل قلوبهم كثيراً ما ينعكسُ نورُ ألفاظه وعباراته، وألقُ بيانه، وجمالُ بلاغته، على طرحهم الشعري. فيكسبُ التعبير الشعري جمالاً وجلالاً، ويثري أبعادَهُ، ويُعَمِّق معانيه.. وهنا نجد أن الأمر يختلف عند غيرهم من الشعراء الحداثيين الذين جنحوا للتغريب والتدمير. الذين يحلو لبعضهم والعياذ بالله - أن يستخدم اللفظ القرآني المقدس في سياق شعري مُدَنَّس، كما هو الشأن في قصائد كثيرة لأدونيس والبياتي، ومن سار على نهجهما ... فقداسة اللفظ القرآني في الشعر

الإسلامي. لا يمسسها غبارٌ من سُوء تعبير. وإنما تجيء في سياق عبارات مضيئة نقية طاهرة. فتزيدها نقاءً وطهارةً وقوة تأثير. ونحن نجد تطبيقاً لهذه الخصيصة في العديد من القصائد التي تضمّنها الديوان نختار منها قوله في قصيدة «من فتوحات الغربة»(٣).

«والليلِ وما وسقْ»
والقمر إذا ما اتَّسَقْ
....
إنني راكبٌ طبقاً عن طبقْ
راحلٌ في زمان القلق
....
مُمْتَطٍ صهْوةَ الشمسِ لم أحترقْ
واحتراقي انْطلاقٌ من الأسْرِ في عالم يختنقْ
واتحادي مع الشمسِ عصرٌ
من الطُّهْرِ يبزغُ من بشريات الشَّفَقْ.

والملاحظ هنا .. أن ثمة وشائج دلالية، بين الومضات القرآنية، التي استخدمها الشاعر في مستهل قصيدته، وبين أبعاد التجربة الفكرية والشعورية للقصيدة.. فالقسم القرآني المقتبس -هنا- يُضفي على الموقف الفكري والوجداني الذي تفصح عنه أبيات القصيدة أو سطورها الشعرية - ما من شأنه أن يأى به التردّد والإنكار..

والأمر نفسه نجده في قصيدة «الشهيد»(٤) خاصة في المقطع الذي يقول فيه:

«قال عفريتٌ من الجنِّ أنا آتيك» بالعرس السليبْ
قبل أن يرتدَّ طَرْفُكْ
واندفاعات الرصاصات تجيبْ
....
وملوكُ الجنِّ تبني لسليمان الحكيمْ
ما يشاء..
من قلاعٍ وحصونْ
«وجفانٍ كالجواب .. وقدورٍ راسيات»..

والشاعر يدرك معنى الالتزام وأبعاده، ومسؤولية الحرف التي يتعين أن يلتزم بها حملة الأقلام، ففي زمن الزيف والباطل والتردّي. يجب أن يكون الحرف جواداً جسوراً، وسيفاً مسلولاً، ويتحوّل الشعر إلى وسيلة جهاد وسمو، وسعْي من أجل الوصول إلى الغايات الإنسانية النبيلة، والنفع الإنساني الذي هو بمثابة عنصر جوهريّ -موضوعي- في الأدب الإسلامي عامة ... ومن هذا المنطلق يقول الشاعر بفنيّة تعبيرية عالية في قصيدته «مهلاً يا سيدتي»(٥).

فالشاعرُ يا سيدتي...
في طغيان العصرِ الحجريّ تجفُّ الأنهارُ
فتسقيهِ كلماتُهْ
حين يصيرُ الموتُ هويَّةَ كلِّ العالم يأساً ...
تُحييه كلماتُهْ

المرايا وزهرة النار

وأنا يا سيدتي أسْرَجْتُ خيولَ الحرفِ..،
امْتَشَقْتُ أوزاني السيفْ
أردفْتُكِ خلفي،
لم ينبتْ في حقل رؤاي الخوفْ

والشاعر في تفاعله الإيجابي مع الواقع العربي والإسلاميّ يتوحّدُ همُّه الخاص بالعام؛ فيطرح صورة صادقة لهذا الهمّ. صورة تُدين الواقع. لكنها لا تفقد الأمل في تجاوزه ... يقول الشاعر في إحدى فقرات قصيدته «الشهيد» التي سبقت الإشارة إليها مستخدماً في بنيته التصويرية إحالات تاريخية وتراثية عربية عَمَّقَتِ المعنى:

والأباةُ الصِّيدُ خلفَ السُّورِ تستافُ العذابْ
ونداءُ الحقِّ مدفونٌ بأضلاع المآذنْ
واليهودُ المجرمونْ
يحرقونَ المسجدَ الأقصى وفيه يرقصون
وثقيف تغمدُ السيفَ بأضلاع هوازنْ
... ويعودُ الشَّجرُ الأخضر يسعى!...،
قادماً في مأتمِ الشمسِ وأشباح الغروب
وعليه يتبارى المسلمونْ
وهو مشحونٌ بألوانِ السمومْ..

.. غير أن إدانة هذا الواقع -كما قلنا- لا تفقد الأمل في تجاوزه، وإنما ينبثق شعاع البشرى من دماء الشهداء.. يقول الشاعر بعد المقطع السابق مباشرة:

وتعودُ النارُ في ثوبٍ جديدْ
وتهزُّ الأرضَ صيحاتُ الشَّهيدْ
يُشعل النار على كلِّ الحدودْ

يحرقُ الأشجار .. يلقى في لظاها كُلَّ أشلاء القيودْ

... وحريٌّ بنا قبل أن ننتقل إلى بعض نماذج الشعر العمودي بالديوان أن نؤكد -ومن واقع القصائد- على أن الشعر التفعيلي من وجهة نظر الشاعر الإسلامي يجب أن يشفَّ في عمق بحيث لا تطمس أفكارُهُ ورؤاه الفنية تعقيدات لغوية ودلالية، كما أنه يجب أن يزخر بجماليات الشعر وثوابته المتعارف عليها. من موسيقى سليمة ومؤثرة، وجمال فني في التعبير اللغوي والتصويري، وهذا ما هو متحقق في القصائد السابقة التي عرضنا لبعض فقراتها بالتحليل الموجز، فهي قصائد تفعيلية لم تلتزم النسق العمودي التام، بَيْدَ أنها زاخرة بموسيقى التفعيلات، والموسيقى الداخلية للألفاظ والتراكيب اللغوية، بل وموسيقى القوافي -أيضاً- تلك الموسيقى التي تُكْسِبُ التعبير الشعري ثراءً وخصوصية، وتُرسِّخُ وقفاتِه النَّغَمِيَّة، وإن الفنّية الجمالية،وما دام مُتَساوِقاً مع طبيعة التجربة وما تطرحه من أفكار.

● وفي انتقالنا إلى قصائد الديوان العمودية. نتوقَّفُ أمام قصيدة نعتبرها من عيون الشعر في هذا الديوان. وهي قصيدة بعنوان «الجبل»(٦) فالشاعر -وهو بمكّة المكرمة- يقطع طريقاً بين الجبال ويرى الراسيات تعانق أحلام النجوم،

وشائج دلالية بين الومضات القرآنية في قصائد الديوان وتجربة الشاعر

ويستشعر أنهارَ الضياء تتفجَّرُ من شرايين الصخور. يقف متأملاً في خلق الله، وقفة مفعمةً بالإيمان تُعزِّزُ هذا الألق الشعري الذي عبّرت عنه القصيدة. يستهلُّ الشاعرُ قصيدته بقوله:

أنّىٰ أسيرُ يضمُّني الجبلُ فكأنني في الصخر أرتحلُ
من كلِّ زاويةٍ ملامحُهُ تبدو .. وفي الأجواء تَنتَقِلُ
فكأنّهُ عينُ الوجود إلى قلب الخفايا لَمْحُها يَصِلُ
مُتَجهِّم.. جرداءُ قِمَّتُهُ لكنّه بالخير يشتعل
مُدَّتْ إلى الغيمات راحتُهُ فإذا بِجُرْحِ الكونِ يَنْدَمِلُ

وبعد هذه الأبيات التصويرية الوصفية الرائعة.. وهي تمهيد تعبيري جميل -للانطلاقة الفكرية الإيمانية التي تحملها أبيات القصيدة التالية، في دفقات محكمة البناء- .. بعد هذا التمهيد يتوقّف الشاعرُ متأملاً مظاهر الحقيقة الإيمانية التي ينبض بها قلب الجماد وشرايين الكون.. حيث يقول:

وإذا الوجودُ الطفل تحضنهُ أمُّ القرىٰ ويكبّرُ الجبلُ
أنشودةُ التوحيد منطقُهُ وعليه من لألائها حُلَلُ

ويستحضر الشاعرُ حقائق التاريخ الإسلامي وأحداثه، فتتلاشى الفواصلُ الزمنية، وتفوحُ الذكرى بعبقها على طرح صور شعرية متفرّدة، ومنبثقة من البيئة الفنية والوجدانية للتجربة الشعورية:

دعواتُ إبراهيم صاعدةٌ فإذا الصحارى وجْهُها خَضِلُ
وحِراءُ نبعٌ في تماوجه الأرضُ بالعلياء تَتَّصِلُ
صخْرٌ ومنه تفجّرت شهبٌ ولها بكلِّ منارة شُعَلُ
«إقرأ تعالى الله قائلها» فإذا الجبال الصمُّ تبتهلُ

وبدون أن تَفْقِدَ القصيدة وحْدتها الموضوعيةَ. نجد أنفسنا بصدد رؤية فنية متنامية ومتفرّعة. إذ يتخذ الموقفُ التأمّلي للشاعر مساراً آخر، موضوعه حال المسلمين الحاضر. مصوراً واقعهم المثخن بالجراح والسلبيات، والتحديات التي يجب مواجهتها كي تعيد الأمة الإسلامية أمجادها، وتنطلق إلى مستقبلٍ مشرق -ففي مقارنة بين الماضي والحاضر يقول الشاعر:

«والأمة الحيرى مُمزَّقة تسعى ولكنْ سعْيُها فشلُ
لم تَصْفُ أنهارُ الحياة بها فحقولها ينمو بها الكللُ
ما شادهُ الأمجادُ قد وأدتْ وبدت كأنّ جديدها طللُ
...
هل يرجمون الإثْمَ في زمنٍ الآثمونَ به... هم المثلُ؟!
أم يرجمونَ الكفْرَ في زمنٍ الكافرون لسيفهم صقلوا؟!
أم يرجمون الخُلْفَ بينهُم وقلوبهم تَغْلي وتَفْتَعِلُ!!
هذي حدودهمُ قد اشْتَعَلتْ والنارُ شيطانٌ لها حِيَلُ..

وللأزهر الشريف مكانة كبيرة سامية في قلوب المسلمين وعقولهم. للدور الكبير الذي يقوم به علماؤه .. في سبيل نشر علوم الإسلام والدعوة إلى الله. في كل أرجاء العالم، إذ يفد إليه طلاب العلم من كل مكان في العالم، وينطلق منه الدعاة إلى العديد من البلدان، ناشرين نور الدعوة الإسلامية .. لا يرى الشاعر في الأزهر الشريف مجرد صرح شامخ ومئذنة فحسب. بل يراه هدْياً في القلوب وروْحاً تنطلق من أغلالها لتبعث في النفوس سكينة الإيمان وأمن الهدى .. يقول الشاعر في قصيدة «الأزهر والطوفان»(٧)..

يا أزهر الدنيا بنورك أزهرت
مُهَجُ الليالي والبوادي تورقُ
من ألف عام فَيْضُ ذاتكَ مائجٌ
وبكل عصر ضوؤكم يتدفَّقُ
ما أنتَ مئذنةٌ وصَرْحٌ شامخٌ
بل أنتَ هدْيٌ في القلوب معلَّقُ
أنتَ انطلاقُ الروح من أغلالها
أنتَ الأمانُ بكل نفس يَبْرُقُ

وينتقل الشاعر إلى تصوير دور الأزهر العلمي الذي يمتد إلى طلاب العلم القادمين إليه من كل مكان في الأرض .. فهو قبلة العاشقين لنفائس العلوم. ومبدِّدُ الجهالات في مشارق الأرض ومغاربها..

شدّوا الرحالَ وأنت قِبلةُ عاشقٍ
لنفائس العلمِ الفريدة يعشقُ
عادوا وبَرْقُ العلم في أيديهمُ
والحق في آفاقهم يترقرقُ
فإذا الجهالات الكثيفةُ ترتمي
في مغرب الآفاق وهْي تمزَّقُ
ومشىٰ ضياؤك في ظلام كياننا
فإذا الأماني في الحياة تحقّق

والمتأمل في هذه الأبيات سيلاحظ بدون عناء - أن جدّية الموضوع وواقعيته .. لم يقيدا خيال الشاعر وقدراته التصويرية، ولم يجنحا به إلى التعبير التقريري المشوب بالجفاف، بل انطلق خيال الشاعر وتجلّت قدراته التصويرية لترسم صوراً متفرّدة متآزرة تماماً مع الفكرة ومستقاة من البيئة الفنيّة للموضوع. بغير إقحام أو افتعال. «عادوا وبرق العلم في أيديهمُ ، والحق في أفاقهم يترقرق،... الجهالات الكثيفة ترتمي في مغرب الآفاق...» فنحن بصدد تعبير تصويري متميز، مبني على استعارات متلاحمة، تزيد المعنى ثراءً، وتعمِّقُ أبعاده ... ممّا يجذب فكر المتلقي وخياله ووجدانه ... ويعمِّقُ تَفَاعُلَهُ ..

ولم يقتصر دور الأزهر الشريف ورجاله على الناحية العلمية والفقهية والدعوة إلى دين الله الحنيف وتبديد البدع والجهالات والوقوف ضد الدعاوي الإلحادية... وإنما امتد دوره وجهد علمائه إلى الجهاد في سبيل الله، والدفاع عن الدين والوطن ... ولم يغِبْ عن الشاعر ذلك الدور العظيم الذي يُحْسَبُ للأزهر ورجاله ... فصورت أبيات القصيدة هذا الدور العظيم. وكَشَفَ التعبير -أيضاً- عن قدرات الشاعر التصويرية والبلاغية السامِقَة حيث يقول:

كالبحر أنتَ لفظتَ كلَّ مُخَاتِلٍ
فإذا به فوق الشواطىءِ يَنْفُقُ
المعتدون عليكَ صاح خيالُهم
أخْنى على مصرَ الجمودُ المُطْبِقُ